الهيكل العام للاقتصاد الاسلامي

ذ. راشد الغنوشي

لقد غدا المشكل الاقتصادي ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ على رأس مشكلات الانسان المعاصر والحكومات المعاصرة. بل غدا يمثل التحدي الاساسي لكل نظام ولكل إيديولوجية. ولأن الاسلام معني بمشكلات الانسان لأنه إنما جاء من أجل الانسان كان على الحركة الاسلامية أن تبرز معجزة الاسلام في حل المشكل الاقتصادي على نحو يضمن فعالية الانسان المنتج وتوزيع المنتوج توزيعا عادلا.

الاطار:

انه لا سبيل لحل المشكلات الانسانية الكبرى بغير وضعها في اطار محدد ويتكون الاطار في المشكل المطروح من عنصرين أساسين: عنصر عقائدي ثقافي، وعنصر جغرافي سكاني.

الاطار العقائدي:

ان المشكل الاقتصادي الذي نعيشه البشرية اليوم رغم طغيان جانب الأرقام والمخططات في الحديث عنه هو في رأينا مشكل قيمي حضاري قبل كل شيء.. يتمثل أساسا في الفلسفة المادية، فلسفة السيطرة، والقوة، واللذة، والمنفعة التي تشكل الأساس النظري لحضارة الرجل المسيطر على العالم، حضارة الغرب.. تلك الفلسفة التي لم تعترف بأي معنى للانسان يتجاوز كونه جسدا، لا تتعدى غايته من الحياة، اللذة والسيطرة.. تلك الفلسفة التي جعلت من الانسان إلاها يفرض إرادته على أخيه الانسان ويستغله كيفما شاء ولم لا طالما أن الحق هو إرادته على أخيه الانسان ويستغله كيفما شاء ولم لا طالما أن الحق هو ارادة الأقوى، والغاية، مزيد من اللذة..

إنه على عاتق هذه الفلسفة تقع مسؤولية المآسي الكبرى التي يعيشها الانسان المعاصر.. الحرب، والاستعمار، والفقر، والاستغلال، والعنف.. ومن ثم طالما لم تقع ثورة على هذه الفلسفة الدهرية (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا الا الدهر) فستظل المشكلات الانسانية ومنها المشكلات الاقتصادية بعيدة عن الحل بل ستزداد تفاقما ويزداد الأثرياء ثراء والفقراء فقرا..

والثورة على الفلسفة المادية لا تعني بحال الارتماء في أحضان الفلسفات الخيالية والمثالية، وازدراء الجسد وما يتوق إليه من متع كلا.. وانما النظر الى الانسان نظرة شمولية تستوعب الجسد وحاجاته والروح وأشواقها.. والعقل ومقتضياته وكون الانسان عضوا في جماعة لها عليه حقوق.. كل ذلك في توازن واعتدال لا يخل ببعد من هذه الأبعاد على حساب الأبعاد الاخرى.. وهذه النظرة لا تجد صيغتها المتوازنة إلا في الاسلام.

فما هو الاسلام:

الاسلام هو منهج الحياة الذي ارتضاه الله للانسان فردا وجماعة وللمجموعة البشرية كلها... وتستند مناهج الحياة على خلفيات فكرية وعقائدية توجه الحياة العملية وتمد العاملين بحوافز العمل الضرورية.. والصلة



بين المناهج وأسسها الفلسفية تزداد تماسكا وتلاحما على قدر ما في تلك المناهج من شمول في الرؤية . . وقد تكون تلك الأسس التي يقوم عليها نظام ما وضحة بارزة كما هو الحال في الاشتراكية الماركسية وقد تكون على قدر أقل من الوضوح كما هو الحال في النظم الرأسمالية حيث تسري بشكل خفي النظرية المادية للانسان وفلسفة المنفعة أو اللذة . . . والفصل بين الحياة الروحية والمادية . .

أما بالنسبة للاسلام باعتباره رؤية شاملة للكون والانسان والحياة وما بعد الحياة فان التماسك بين أجزائه يبلغ حدا بعيدا لدرجة أن تلك الرؤية الفلسفية تسري في الكل بشكل بارز جدا سريان الماء من الجذع الى جميع فروع الشجرة وان بعدت . .

فما هي تلك الأسس الفكرية والفلسفية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والاقتصادي منه بشكل خاص؟

يكاد المنظرون الذين كتبوا في النظام الاقتصادي الاسلامي يجمعون على اعتبار أسس الاقتصاد الاسلامي تتلخص في المفاهيم والافكار التالية :

1 ـ **مفهوم التوحيد** : وهو جوهر العقائد الاسلامية ويعني رفض كل أشكال الالوهية المزيفة التي تفرض استعباد الانسان سواء ظهرت في صورة صنم يتمسح الناس على أعتابه ويقدمون له القرابين أو في صورة سلطة سياسية مستبدة تستذل الناس وتفرض عليهم الديكتاتورية وتملك التصرف في حاجياتهم المادية والمعنوية أو في شكل شركات رأسمالية تحتكر الثروة وتسخر البشر في تنميتها وتسرق ثمار عملهم . فلا يأخذ العامل من جهده الا القدر الذي يتبلغ به لمواصلة جهده في تكديس الثروة الرأسمالية . . ان في اقرار عقيدة (لا اله الا الله) تحريرا للانسان من الداخل فلا يخشى شيئا الا الله ، انها قلع للاستغلال من جذوره وليس مجرد تغير لموقعه .

2 ـ **ملكية الله وخلافة الانسان** : ان هذا الكون بكل ما ومن فيه لله لا شريك له في ومصادر الثروة في هذا الكون ، يتصرف فيها وفق ارادة من استخلفه (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

وهذا الاستخلاف في التصرف في الثروات انما استخلاف من الله للجماعة ، فالجماعة هي المسؤولة أمام الله عن تصرف أفرادها في الثروة ، فالجماعة مسؤولة عن تطبيق العدل في توزيع الثروة وهي مسؤولة ثانية عن تنمية الثروات واستغلالها .

وهناك نوع اخر للاستخلاف هو استخلاف الجماعة للافرادفي التصرف في الثروة مما يسمى بالملكية الخاصة وهي استثمار الأفراد للثروات مما يخدم مصالح الجماعة فكل ملكية خاصة تتعارض مع مصلحة الجماعة فلا اعتبار لها ومعنى ذلك أن الفرد مسؤول أمام الجماعة عن نوع تصرفه في الثروة التي تحت يده فكل تصرف فيه اضرار بالجماعة موجب لنزع تلك الثروة وردها الى المستخلف وهو الجماعة .

وإذا كان التوحيد يعني أن المالك هو الله دون غيره من الالهة المزيفة فان هذا المالك الوحيد انما يتصرف وفق العدل أي لا يؤثر فردا على فرد والا يمنح حقا لفئة على حساب فئة بل يستخلف الجماعة الأصلح . فالخلق كلهم عيال الله فلا حق لفرد أن يستأثر بثروة والناس جياع . فالرجل وجهده ، والرجل وحاجته .

فالارض كلها مائدة الله والخلق كلهم عباده يأخذون منها على قدر جهودهم دون اسراف ولا حرمان بسبب عجز ولا احتكار ولا ظلم ولا استغلال . عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله ﷺ : (العباد عباد الله والبلاد

بلاد الله من أحيا شيئا من موات الارض فهي له، وليس لعرق ظالم حق) أخرجه البيهقي وصححه السيوطي. وزاد أبو داود قال عروة: (أشهد أن رسول الله ﷺ قضى أن الارض ارض الله والعباد عباد الله ومن أحيا ارضا مواتا فهو أحق بها).

فملكية الانسان لا تعدو تمكينه من حق الانتفاع وفق مصلحة الجماعة اذ لا يتصور في حق العباد ملك الرقاب، وان اطلق توسعا فالملك في الحقيقة هو لله تعالى.

أما الانسان فليس له سوى حق الانتفاع باذن الشريعة، فانها شرع الملك للانتفاع وليس في الاسلام اذن مجال للحديث عن حق طبيعي للملكية، وانما الملك اذن من الشارع ينتفع به الفرد تحت رقابة الجماعة وهذا يعني أن الملكية وظيفة اجتماعية..

وهذا ما يجعل التصور الاسلامي للملكية مخالف تماما للتصورات السائدة في العصر، الرأسمالية منها التي تقدس التملك وتعتبره حقا طبيعيا (فرع لغريزة حب البقاء أو الأنانية) والتصورات الاشتراكية التي ترى في الملكية الفردية مصدر الشر والاستغلال فتلغيها لتجعل من الافراد عبيدا عند الدولة والحزب.. أما الاسلام فلا ينظر للملكية من حيث هي شرا وانما الذي يجعلها خيرا أو شرا الاطار الفلسفي الذي توضع فيه. وانما تحولت الملكية الى مصدر للاستغلال أو للقهر في المجتمعات الغربية بسبب التصورات المادية الضيقة التي وضع المشكل في اطارها... للفرد في المجتمع الاسلامي أن يملك ما ينتفع به وينفع غيره تحت رقابة من ضميره الديني واشراف من المجتمع، فاذا لم يؤد الوظيفة الاجتماعية للملكية بسبب تعطيلها عن الانتاج أو تحويلها الى سبب الاستغلال لغيره ضرب على يده ولو بالانتزاع دون مقابل..

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم).

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم).

3ـ الايمان بالحياة بعد الموت (المعاد): في ظل التصورات المادية الجاهلية تغدو الحياة فرصة الفرد الوحيدة لاقتناص أكبر قدر ممكن من اللذائذ.. فينمو بين الأفراد والمجتمعات التنافس والصراع لاحتياز الثروة وكنزها وتحقيق الذات فيغدو الاشباع المسعور هو الثمرة الطبيعية لهذه الفلسفة التي تنظر الى الموت على أنه النهاية الأبدية للحياة، وينصرف الانسان بنهم وشره طمعا في تحقيق ذاته وخلودها.

فجاء الاسلام بنظرة مخالفة لهذه تماما، فهو ينظر الى الحياة لا على أنها فرصة للذة والسيطرة ولا على أنها حقيرة منبوذة وانما هي مجال النضال من أجل تحقيق الكمال الانساني (الخلافة) وتجسيد المثل الأعلى في سيادة الحق والعدل والخير ودحر الظلم والشر والفساد، وانه بقدر نضالنا في الحياة على هذه الجبهة بقدر ما نضمن سعادتنا الأبدية بعد الموت. والعكس انه بقدر نكوصنا في هذه المعركة وتخلينا عن مدافعة قوى الشر في أنفسنا وواقعنا بقدر ما نشقى في هذه (ولعذاب الآخرى أشق) على نحو أن الفرد المومن يشعر أنه بقدر ما يتنازل عن لذاته الخالصة في هذه لفائدة غيره بقدر ما يفوز باللذات الكبرى في الآخرة، والعكس انه بقدر ما تستبد به أنانيته فيرضى لنفسه بأكبر قدر ممكن من اللذائذ ولو على حساب غيره بقدر ما يحرم في الأخرى.

ان ما يتضمنه الدين من هذه الرؤى والتعاليم وما وضعه من وسائل وطرائق ليجعلها تتغلغل في أعماق الانسان ومشاعره وتؤثر في حياته وعلاقاته كالصلاة والصيام.. كفيل بتقديم أسس وقواعد لنمط آخر من الانسان والمجتمع والحضارة.. وإحداث ثورة على مستوى العلاقات البشرية اليوم ومنها العلاقات الاقتصادية ولا يعني هذا بحال أن الاسلام يكل أمر تحقيق العدل الاجتماعي الى عمل التثقيف والتوعية والتربية، كلا فالاسلام ليس مجرد دين، انه دولة أيضا همها قيام القسط بين الناس ولو باستعمال الزجر.

ان الاسلام ينطلق من اعتبار حرية الانسان قيمة أساسية لا ينبغي التساهل في التضحية بها، ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذه القيمة التي تمثل الجوهر الانساني وبين ضرورات العدل في العلاقات البشرية؟ الملاحظ هنا أن الفلسفات التي ألحت على قيمة الحرية ضحت بمبدأ العدل والعكس فعلت الفلسفات أخرى، بينما الاسلام بقدم رؤيته الانسانية حلا

هذه المعادلة الصعبة على نحو يجعل الحرية تعمل بوعي في خدمة العدالة عندما توضع تلك الحرية في اطار يتجاوز المجال الدنيوي الضيق ليمتد عبر حياة الخلود بعد الموت . . . فيقبل المسلم عن وعي على التضحية بذاته الخاصة لصالح الآخرين مرضاة لله عز وجل وضمانا للسعادة الأخروية . . ـ (ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة) (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) ـ فاذا عجزت التربية في توجيه الحرية في خدمة العدالة، واتجهت الحرية توجها أنانيا مخربا تدخلت الدولة لتضع الأمور في نصابها . . فعلى قدر فشل التربية وعجز الحرية يتسع حجم تدخل الدولة والعكس كذلك.

ان معادلة التوفيق بين الحرية والعدالة، بين الذاتية والغيرية تمثل المعضلة الأساسية في العلاقات البشرية، ولا حل لها إلا في الاسلام.

4ـ **الأخوة**: ينطلق الاسلام في نظرته للمجتمع من اعتباره وحدة عضوية متفاعلة متساندة متضامنة، وتنطلق هذه الوحدة من الاشتراك في الأصل الانساني (إنا خلقناكم من نفس واحدة . . .) ثم وحدة المعتقد (إنما المومنون إخوة . .) فليس المجتمع بل ليس العالم في صورته المبتغاة مجموعة تكتلات مصلحية عرقية أو ثقافية تتصارع وتتقاتل على الكسب أو السيطرة . وانما عائلة واحدة (الخلق عيال الله) تجمع بينهم روابط الأخوة . . وهذه الأخوة ليست مجرد مشاعر من التحابب والتوادد بل هي مشاركة وجدانية واجتماعية وحقوق شرعية توجب على الأخ أن يستشعر هموم أخيه وأن يعمل على التخفيف من وطأتها على الأقل (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عليه كربة من كرب يوم القيامة) (لا يومن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) يعلق أحد كبار رواد التفكير الاجتماعي والاقتصادي في الاسلام العلامة (ابن حزم) رحمه الله على الحديث الأخير فيقول: (متى تركه يجوع ويعرى وهو قادر على اطعامه وكسوته فقد أسلمه) وعرض البنيان الاجتماعي كله لاختلال التوازن المهلك (وانفقوا . .

والحد الأدنى المطلوب بذله لحفظ التوازن الاجتماعي هو الزكاة . . فان لم تكف الزكاة بسبب ما حدث من اختلال فادح كان حد الانفاق بقدر ما يعيد التوازن الى المجتمع حتى وان اقتضى ذلك اقتسام كل ما في المجتمع من الثروات بالسوية. فقد أثنى الرسول ﷺ على الأشعريين وهم قبيلة فقيرة من جنوب اليمن: (رحم الله الأشعريين كانوا اذا أرملوا جمعوا أقواتهم في كيس واحد وأقسموها بالسوية فأنا منهم وهم مني).

وليس أمر إعادة التوازن موكولا لمشاعر الأغنياء بل هو واجب الدولة إن لم يقوموا به من تلقاء أنفسهم يقول الشيخ الثائر (وفرض على الاغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقراءهم ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم ولا سائر أموال المسلمين فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس) المحلي ج. 6 ص 156.

فاذا تخلى أصحاب المال عن واجبهم تجاه اخوانهم وتواطأت معهم السلطة كان على الفقراء أن يعتمدوا على أنفسهم في افتكاك حقوقهم المغصوبة ولو مع استعمال القوة:

قال ابن حزم في كتاب (المُحلّى): (من عطش فخاف الموت فرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده وأن يقاتل عليه ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه، لأن فرضا على صاحب الطعام إطعام الجائع، فاذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك فان قتل (الجائع) فعلى قاتله القود ـ أي القصاص ـ وان قتل المانع فالى لعنة الله، لأنه منع حقا وهو طائفة باغية . . . قال تعالى (فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله . .) ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق).

فالأخوة بأبعادها الانسانية والاجتماعية والعقائدية هي أساس المجتمع لاسلامي وليس الصراع.

ولا حرمة لمال ولا ثروة اذا غدت هذه الأخوة مهددة. ولا حرمة لمال ولا لثروة اذاتعرض البناء الاجتماعي للاختلال وفقد خاصيته الأساسية: التساوي أو التقارب والتعادل فيتعرض للهلاك:

(وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة).

هذا هو الاطار الثقافي أو العقائدي الذي سنتحرك خلاله بحثا عن حل للمعضل الاقتصادي في بلادنا.

الاطار الجغرافي والسكاني:

ولأن العقائد لا تؤثر الا من خلال تفاعلها مع الارض مع الزمان والمكان.. كان لابد من تحديد للاطار الارضي والجغرافي السكاني الذي نعتبره المجال الملائم لحل المعضل الاقتصادي وغيره.

ان من العوامل الرئيسية في التخبط الذي تعيشه بلادنا على كل المستويات غياب الاطار العقائدي الشامل.. الغياب الذي أفقد العامل كل حافز معنوي للانتاج والتضحية والذي فرض على بلادنا أنماط مجتمعات الاستهلاك، على نحو أن النظام أوجد في المواطنين رغبات عجز عن تلبيتها فضلا عن قيام الدولة بالدور المناقض لمهمتها الأساسية لاستمرار الاستغلال (قانون 72، 74) وتحميه بمختلف الوسائل، فبدل أن يكون المسؤول نموذجا في التواضع والتقلل غدا العكس هو الحاصل وغدت المسؤولية أقرب طريق للاثراء.

هذا عامل أما العامل الآخر فهو الوضع السيء، أو الاطار غير المناسب الذي وضع فيه المشكل الاقتصادي ببلادنا.

فاذا كان هذا الاطار العقائدي الذي وضع فيه المشكل الاقتصادي كما هو الحال في بقية البلدان الاسلامية هو فلسفة الغرب في اللذة والرفاه وما يتولد عن ذلك من التنافس على الاستهلاك.. فان الاطار الجغرافي هو الوطنية التونسية.. فلقد اجتهد منظرو الحزب من زمان بعيد في الحديث عما اسموه بالشعب التونسي ومرة بالأمة التونسية... وبقطع النظر عما اذا كانت تونس شعبا أو جزء من شعب أو هي أمة أو جزء من أمة.. فان الاطار الجغرافي والسكاني تحتفل للمرة الخامسة والعشرين ب(استقلاله) ليس في وسعه أن يكون مستقلا.. ان حجمه الجغرافي والسكاني لا يمكنه في عالم يتجه قدما نحو التكتلات الدولية الكبرى الا لأن يكون ذيلا لتكتل من تلك التكتلات:

(السوق الاوربية المشتركة مثلا) فتفرض عليه شروطها المجحفة في التعامل ويضطر هو للقبول. وهكذا تحولت بلادنا في ظل الاطار الجغرافي والسكاني الذي ارتضيناه لأنفسنا الى وضعية التابع المنهك المستغَل من طرف أوربا.. مما يجعل الحديث عن الاستقلال في هذا الاطار هو ضرب من التمويه والتغني بالشعارات.

ان على التونسيين ان أرادوا أن يعيشوا عصرهم ويفقهوا اتجاهه أن يتحللوا عن هذا الوهم (الاستقلال) ويختاروا أحد سبيلين:

1ـ اما أن يستمروا على التبعية الذليلة لأوربا وأمريكا والاكتفاء من الاستقلال بالشعارات والنشيد الرسمي.
2ـ أو أن يعملوا على تحطيم هذا الاطار السياسي الجغرافي الضيق الذي حشروا أنفسهم فيه ليندمجوا في اطار أرحب لا يجعلهم في وضع التابع بل في وضع الشريك وقضية الاطار لا تحدد بالقرار السياسي بل تحدد على ضوء معطيات ثقافية وتاريخية وجغرافية.

ان القرار السياسي يستطيع أن يربطنا بالغرب ولكنه لن يجعلنا غربيين لأننا لا نريد ذلك هذا اذا قبل الغرب وهو لا يريد.. اننا كنا وسنبقى عربا مسلمين.

فالاسلام لا يقدم لنا الاطار العقائدي لحل مشكلاتنا بل يقدم لنا أيضا الاطار الجغرافي والسكاني والتاريخي على اعتبار أننا جزء من أمة تمثل خمس سكان العالم وخمس المساحة الأرضية وتحتوي على أضخم الموارد والطاقات في العالم...

اننا نصر على أن الاطار الطبيعي الملائم لعقائدنا وعصرنا ليس هو بحال (الوطن التونسي) ولا الايديولوجية القومية أو الوطنية التي تفوح منها رائحة الذيلية للغرب وانما هو الاسلام والعالم الاسلامي والأمة الاسلامية بدء من المغرب العربي الى العالم العربي الى العالم الاسلامي، الى الشعوب المستضعفة عامة في افريقيا وآسيا. هذا هو الاطار الذي يجعل للجهود المبذولة في حل مشكلتنا رصيدا وجدوى.. بل ان في هذا الاطار تجد مشكلات ما يسمى ب (العالم الثالث) عالم المستضعفين حلولها... وعندئذ يمكن أن يقوم حوار حقيقي بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب... بل ان هذا الاطار كفيل بأن يقدم للغرب الغارق في مشكلاته الاقتصادية خيوطا من النور تهديه الى أنه طالما استمر على تأسيس حياته على فلسفة اللذة والمتعة والسيطرة والقوة، ولم يعزم على القيام بثورة كبرى على ماديته على غرار ثورته السابقة على الروحانية الكنسية الزائفة فلن يجد حلا لمشكلاته الاقتصادية مهما رصد لها من خبراء اقتصاديين لأنها مشكلات ذات طابع انساني بحت.